

علماء مدرسة الحلة ونشر التشيع؛ أسباب تقسيمات الحديث والتعامل السني مع الروايات

محمد حسين افراخته^١

الملخص: يصل الكاتب في ضمن مناقشة مؤشرات اختبار الحيثية لروايات الشيعة الى مقسمة ذات اربعة اجزاء التي شاعت بين علماء الشيعة من عهد العلامة الحلي (٦٤٨ - ٧٢٦ ق) ثم ينقل كلام الشيخ بهاء الدين العاملي وصاحب المعالم ويقوم بنقده و مناقشته. ثم يحصل على هذا الاستنتاج بالمناقشة ودراسة آثار عدد من العلماء البارزين للمكتب الحديثية والفقهية للحلة اي العلامة الحلي، المحقق الحلي (٦٠٢ - ٧٧٦ ق)، والشهيد الاول (٧٣٤ - ٧٨٦ ق) والنتيجة هي أنّ هؤلاء العلماء يعتبرون الاحاديث التي على اقسام الحديث الاربعة تعدّ «الحديث الضعيف» وجعلوه اساس فتاواهم. طرحت في هذه المقالة ضرورية دراسة التاريخ الاجتماعي للشيعة في ضمن دراسة تاريخ الفكر الشيعي ومقارنة ثلاثة كتب من العلامة الحلي ايضاً وهي «منتهى المطلب»، «مختلف الشيعة» و «تذكرة الفقهاء».

الكلمات المفتاحية: اختبار الحيثية لروايات الشيعة؛ المؤشرات؛ المقسمات الاربع لاحاديث الشيعة؛ العلامة الحلي؛ صاحب المعالم؛ الحديث الضعيف؛ التاريخ الاجتماعي للشيعة.

١. ماجستير في تاريخ الإسلام، جامعة طهران، محقق في التاريخ الاجتماعي - الفكري للتشيع في مؤسسة مطالعات إمامية، طهران: (mhafrahteh 84@yahoo.com)

المقدمة

يمكن اعتبار المدرسة الحديثية -الفقهية الحليّة في القرنين السابع والثامن الهجريين القمريين من أهم المراحل التاريخية للفقه الشيعي، إذ لا تزال آثارها وتأثيراتها ماثلة إلى يومنا هذا على مستوى الفقه الشيعي. وبعد العلامة الحلي (٦٤٨-٧٢٦ ق.) أحد أهم وجوه مدرسة الحلة.. وهو أول من أبدع بحث تنويع وتقسيم الحديث إلى أربعة أقسام، الصحيح والحسن والموثق والضعيف.. ولطالما عرضت مبررات هذا التقسيم للحديث؛ ولعلّها لا تتناغم والقرائن المتوفرة في كتب أساطين المدرسة الحليّة. ومن هنا؛ كان لابد من تقديم نظرية وبحث جديد فيما يرتبط بذلك التقسيم.. وكذا التحليل معيار ومدى تشبث علماء هذه المدرسة بذلك التقسيم.. وعلى الخصوص فيما يتعلق بالأحاديث والروايات الضعيفة ونتائج ذلك أيضاً ذات الأهمية الخاصة.. ويبدو أن مراجعة السيرة العملية لفقهاء مدرسة الحلة لدى تعاملهم مع أحاديث الشيعة والسعي الي معرفة دلائل ما أقدم عليه العلامة الحلي. يبدو أنه أمر ضروري للغاية.. وهذه الدراسة تجهد - مع الأخذ بنظر الاعتبار تأثير التاريخ الاجتماعي في دراسات تاريخ الفكر- إلى إيجاد فرضية جديدة في أسباب الصيرورة إلى تقسيمات الحديث وطبقاته من قبل العلامة الحلي، وكذا طريقة العلامة في التعامل مع النصوص الروائية.

١- دلائل تقسيمات طبقات الحديث لدى الشيخ البهائي وصاحب المعالم

عرض الشيخ البهائي والشيخ حسن العاملي ضمن إيضاح متشابه مبرراً في علة خطوة العلامة الحلي في تنويع الحديث.. وهذا الإيضاح أضحي مشهوراً معروفاً، وقد كثره العديد من الكتاب أيضاً.. وبعد نقله القرائن التي كان يحملها أو يعتمد عليها الماضون في اعتبار وصحة الحديث، كتب الشيخ البهائي:

«الذي بعث المتأخرين- نور الله مراقدهم- على العدول عن متعارف القدماء، ووضع ذلك الإصطلاح الجديد؛ هو أنه لما طالت الأزمنة بينهم الصدر السالف وآل الحال إلى اندراس بعض كتب الأصول العتمدة لتسلط حكام الجور والضلال؛ والخوف من إظهارها وانتسافها، وانضمّ إلى ذلك اجتماع ما وصل إليهم من كتب الأصول في الأصول المشهورة

في هذا الزمان، فالتسبب الأحاديث المأخوذة من الأصول المعتمدة بالمأخوذة من غير المعتمدة، واشتبهت المتكررة في كتب الأصول بغير المتكررة، وخفي عليهم - قدس الله أرواحهم - كثير من الأمور التي كانت سبب وثوق القدماء بكثير من الأحاديث، ولم يمكنهم الجري عن أثرهم في تمييز ما يعتمد عليه مما لا يركن إليه، فاحتاجوا إلى قانون تمييزه الأحاديث المعتمدة عن غيرها؛ والموثوق بها عما سواها.

فقرروا - شكر الله سعيهم - ذلك الاصطلاح الجديد، وقرّبوا إلينا البعيد، ووصفوا الأحاديث الموردة في كتبهم الاستدلالية بما اقتضاه ذلك الاصطلاح من الصحة والحسن والتوثيق. وأول من سلك هذا الطريق من علمائنا المتأخرين؛ شيخنا العلامة جمال الحق والدين الحسن بن المطهر الحلي - قدس الله روحه^١

وكذا كتب الشيخ حسن العاملي؛ المعروف بصاحب (المعالم) في كتابه (منتقى الجمان):

«فإن القدماء لا علم لهم بهذا الاصطلاح قطعاً؛ لاستغنائهم عنه في الغالب بكثرة الفرائض الدالة على صدق الخبر، وإن اشتمل طريقه على ضعف، كما أشرنا إليه سالفاً، فلم يكن للصحيح كثير مزية توجب له التمييز باصطلاح أو غيره. فلما اندرست تلك الآثار واستقلت الأسانيد بالأخبار؛ اضطرّ المتأخرون إلى تمييز الخالي من الريب وتعيين البعيد عن الشك، فاصطلحوا على ما قدّمنا بيانه، ولا يكاد يعلم وجود هذا الاصطلاح قبل زمن العلامة؛ إلا من السيد جمال الدين ابن طاووس رحمه الله^٢»

كما يلاحظ؛ فإن هذين العالمين المعاصرين لبعضهما، والمتعلّمين في مدرسة أجواء جبل عامل، ولكن أحدهما بقي في بلاده؛ فيما الثاني نزح إلى إصفهان واستوطنها.. يذهب إلى أن العلامة الحلي - وبهذا السبب والدليل - عهد إلى تقسيم الحديث إلى طبقات متعدّدة، متدرّجاً بأن الكتب والصحائف التي حررها أصحاب الأئمة عليهم السلام قد

١. مشرق الشمسين، ص ٣٠-٣٢.

٢. منتقى الجمان، ١/١٤.

تلفت، مما اضطرّه -العلامة الحلّي- إلى وضع وإبداع طريقة جديدة في تقسيم وتحقيق النصوص الروائية على أساس مباني السند...

ولكن نظرة فاحصة إلى كتب ومؤلفات علماء مدرسة الحلة، لا سيما مؤلفات المحقق الحلّي أبي القاسم والعلامة الحلّي، وكذا مؤلفات الشهيد الأول تضع سؤالاً جدياً وعريضاً وصاعقاً بوجه فرضية (تلف مصادر الشيعة القديمة) إذ مضافاً إلى عدم قبول إيجاد منظومة سنّدية في تقييم الأحاديث مع تلف كتب أحاديث الشيعة القديمة.. ينبغي القول أن أصل مبنى هذين العلمين الكبيرين الشيعيين الذي أسس عليه استدلالاتها، أي: تلف المصادر الشيعية القديمة.. يتناقض بالنقول المباشرة التي يعمد إليها علماء مدرسة الحلة عن كتب أصحاب الأئمة عليهم السلام. هذا وستتم الإشارة لاحقاً إلى بعض الشواهد الموجودة فيما يرتبط بوجود كتب أصحاب الأئمة عليهم السلام، وكذا النقل المباشر لعلماء القرن السابع والثامن عن تلك المصادر...

جدير بالذكر أنه وخلافاً لرأي بعض الكتاب المعاصرين الذين يدّعون أن كتب الشيعة الأربعة لم تكن ذات اعتبار وقيمة؛ كاعتبارها وقيمتها المعهودة في أيامنا بين علماء الشيعة^١.

وهنا؛ ينبغي التأكيد على أن اعتبار تلك المصادر الأربعة (الكافي، من لا يحضره الفقيه، الاستبصار، التهذيب) كانت محط اتفاق بين علماء الشيعة، من البداية وإلى اليوم.. كما أن علماء مدرسة الحلة طالما أقرّوا في مؤلفاتهم باعتبار هذه الكتب والمصادر القديمة^٢.

1 . Andrew Newman, Twelver shiism, PP. 157 & 178 .

٢. إن نقول كتب علماء مدرسة الحلة عن الكتب الأربعة وبكثرتها المشهودة، يعدّ بحدّ ذاته أفضل دليل على اعتبار هذه الكتب بين علماء ذلك العصر. والمحقق الحلّي ولعدة مرات استند إلى عبارة الشيخ الصدوق في مقدمة كتابه، يعدّ مؤشراً واضحاً على قبول كتاب (من لا يحضره الفقيه) بل إنه قبل فتوى الشيخ الصدوق بدّعى أنه من أعيان علماء الشيعة. انظر: (المعتبر في شرح المختصر) ج ٢، ص ٣١٣. (الرسائل التسع) ص ١٢٠ و ١٢١. ولطالما نقل العلامة الحلّي أحاديث من الكتب الأربعة، مستنداً إلى رواياتها أو الآراء الفقهية لمؤلفي تلكم الكتب..

وإذا ما طوينا عن هذا الأمر والادّعاء كشحاً، فإن مراد هذه الدراسة في أن مصادر علماء الحلة غير محصورة بالكتب الأربعة المشار إليها، وإنما ثمّ كتب حديثة أخرى إلى جانبها، لاسيما كتب أصحاب الأئمة عليهم السلام، إذ كانت في متناولهم أيضاً..

١-١- وجود وتوفر كتب أصحاب الأئمة عليهم السلام إلى عصر مدرسة الحلة

في الكتب المؤلفة من قبل علماء مدرسة الحلة وما تلاهم، مثل الشهيد الأول، ثمّ شواهد كثيرة تشير إلى أن علماء تلك الحقبة كانت الكتب الروائية والاصولية الأولية للشيعة متوفرة عندهم.. إلى الحدّ الذي يمكن القطع به، بيقين أن كتب الكثير من أصحاب الأئمة عليهم السلام كانت موجودة إلى زمان الشهيد الأول.

ولكنّ المشكلة الكبيرة التي اقترنت بهذا الواقع أن كتب هذه المدرسة خلت في تصاريح علمائها بخصوص الإشارة إلى أسماء المصادر التي أخذوا عنها الأحاديث.. إذ كانوا يكتفون بذكر اسم الراوي أحد من الأئمة عليهم السلام.. إذ كان يكثر منهم التعبير بـ «لرواية»، «لخبر»، «روى» وأمثال ذلك.. ولذا، لا يسع المحقق في هذا الأمر تحديد مصدر الرواية وعن أي كتاب أخذت. إلا أن العلامة الحلي أثناء ذلك - عمداً في كتابه (منتهى المطلب) إلى نقل الحديث مراراً عن كتب الشيخ الطوسي، وبالأخص عن كتاب (تهذيب الأحكام). ومع ذلك؛ وبناءً على بعض الشواهد والقرائن يمكن الالتفات إلى نماذج قليلة جداً حيث جرى النقل المباشر من قبل أولئك الأعلام عن كتب أصحاب الأئمة عليهم السلام.

١-١-١- المحقق الحلي

قد صرح المحقق الحلي (٦٠٢-٦٧٦ ق) - وهو من أشهر فقهاء الشيعة عبر تاريخهم - في مقدمة كتابه (المعتبر في شرح المختصر) وكذا في موارد عديدة في كتابه بوجود كتب أصحاب الأئمة عليهم السلام في عصره، أو نقل الأحاديث عن مصادر غير الكتب الأربعة الشهيرة.

الأول: تصريحات المحقق الحلي في مقدمة الكتاب

أورد المحقق الحلي في مقدمة كتابه (المعتبر في شرح المختصر) وفي نهاية بحثه في

وجوب اتباع دين أهل البيت عليه السلام،^١ كلام بعض الأفراد بخصوص دراسة الإمام الجواد عليه السلام عند يحيى بن أكثم.. فكتب المحقق بهذا الصدد:

«وقد قال بعض من لا معرفة له: أنّ الجواد صلوات الله عليه تلمذ لابن أكثم، وهو جهل بمنزلة الجواد صلوات الله عليه وقلة اطلاع على ما ورد عنه من العلم الجَمِّ؛ وما اشتهر من أجوبته عن مسائل الإمامية بما يدلّ على الإعجاز، وقد كان من تلامذته و أشياعه القائلين بإمامته من لا يرتضي أن يكون ابن أكثم تلميذاً له، كالحسين بن سعيد، وأخيه الحسن، [وأحمد بن] محمّد بن أبي نصر البزنطي، وأحمد بن محمّد بن خالد البرقي، وشاذان بن الفضل القمي، وأيوب بن نوح بن دراج، وأحمد بن محمد بن عيسى، وغيرهم ممّن يطول تعدادهم، وكتبهم الآن منقولة بين الأصحاب دالة على العلم الغزير، فهل يستجيز ذو تحصيل أن يعتقد في هؤلاء الفضلاء اتّخاذهم تلميذاً لابن أكثم إماماً يعتقدون عصمته وفرض طاعته؟! هذا ما لا يعتقده ذو بصيرة!»^٢

فكما يلاحظ؛ فإن المحقق الحلي لدى نقد رأي الأفراد الزاعمين تتلمذ الإمام الجواد عليه السلام على يحيى بن أكثم، أورد أسماء عدة من تلامذته، وذهب إلى أن ابن أكثم غير جدير حتى بالتلمذ عليه، ناهيك عن أن يكون أستاذاً للإمام الجواد عليه السلام.

ويصرح المحقق الحلي بعد ذلك قائلاً أنّ كتب هؤلاء الأفراد كانت تُتناقل في عصره بين الأصحاب - العلماء -: «وكتبهم الآن منقولة بين الأصحاب» وإن تناقل كتب هؤلاء الرواة [الأوائل] عن الإمام الجواد عليه السلام بين علماء الشيعة في القرن السابع الهجري يؤكد أنّ كتبهم لم تكن متوفرة عند الشيعة فحسب، وإنما كانت متداولة مشهورة في تلك الحقبة، وكانت تدرس بين العلماء. والحقيقة هي أن المحقق الحلي يستنتج - من تناقل تلك الكتب وتوفرها لدى العلماء - إلى أنها كانت مصدراً جياشاً بالعلم.. ثم يسأل مستنكراً بالقول: كيف يمكنهم اختيار تلميذ ابن أكثم إماماً مفترض الطاعة؟!

١. الفصل الثاني: في أن مذهب [دين] أهل البيت عليه السلام متعين الاتباع (المحقق الحلي، المعترف في شرح المختصر، ٢٢/١-٢٧).

٢. نفس المصدر، ١/ ٢٧.

وبناء على تصريح المحقق الحلبي، فإنه يمكن القطع بوجود كتب أصحاب الأئمة عليهم السلام الآخرين في تلك الفترة.. والحقيقة هي أن المحقق الحلبي لدى الدفاع عن الإمام الجواد عليه السلام، قد ذكر أسماء هؤلاء الأفراد.. ولاريب في أن مصادره في تلك الفترة لم تكن محصورة بكتب أصحاب الإمام الجواد عليه السلام.

والشاهد الآخر المؤدي إلى وجود كتب أصحاب الأئمة عليهم السلام في تلك الحقبة - حقبة المحقق الحلبي - عباراته الواردة في مقطع آخر من مقدمة كتابه (المعتبر في شرح المختصر).. إذ كتب في خاتمة مقدمة كتابه هذا وذكر مصادر في تأليفه (المعتبر):

«لما كان فقهاؤنا رضوان الله عليهم في الكثرة إلى حدّ يتعسر ضبط عددهم ويتعذر حصر أقوالهم؛ لا تساعها وانتشارها وكثرة ما صنفوه، وكانت مع ذلك منحصرة في أقوال جماعة من فضلاء المتأخرين، اجتزأت بإيراد كلام من اشتهر فضله وعُرف تقدّمه في نقل الأخبار وصحة الاختيار وجودة الاعتبار، واقتصرت من كتب هؤلاء الأفاضل على ما بان فيه اجتهادهم وعرف به اهتمامهم وعليه اعتمادهم، فممن اخترت نقله: الحسن بن محبوب، وأحمد بن [محمد بن أبي نصر] البزنطي، والحسين بن سعيد، والفضل بن شاذان، ويونس بن عبد الرحمن.. ومن المتأخرين: أبو جعفر محمد بن بابويه القمي رضي الله عنه، ومحمد بن يعقوب الكليني. ومن أصحاب كتب الفتاوى: على بن بابويه، وأبو علي بن الجنيد، والحسن بن أبي عقيل العماني، والمفيد محمد بن محمد بن النعمان، وعلم الهدى، وأبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي»^١.

فالعبرة أعلاه تشير إلى أنّ مصادر المحقق الحلبي لدى تأليفه كتاب (المعتبر) لم تكن محصورة في الكتب الحديثية الأربعة المشهورة.. وأنه كانت تحت يديه كتب بعض أصحاب الأئمة عليهم السلام الآخرين، ومنهم: الحسن بن محبوب، وأحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي، والحسين بن سعيد، والفضل بن شاذان، ويونس بن عبد الرحمن.. وإن وجود أسماء هؤلاء الأفراد قد سبق مؤلفي الكتب الحديثية الأربعة المعروفة.. بمثابة دليل آخر على وجود وتوفر كتب أصحاب الأئمة عليهم السلام في عصر المحقق الحلبي.

١. نفس المصدر، ٣٣/١.

الثاني: نقل المحقق الحلي عن كتب أصحاب الأئمة عليهم السلام

فضلاً عن مقدمة الكتاب، ها هو المحقق الحلي ينقل الروايات عن كتب أصحاب الأئمة عليهم السلام في مواضع عديدة من الكتاب ويصرح بها^١.

هذا بالإضافة الي أنّ في كتاب (المعتبر) ثمّ روايات وأحاديث كثيرة لم تنقل في أيّ من الكتب الأربعة. بل إنّ مؤلفي الجوامع الروائية المتأخرة لدى الشيعة -الذين قلّ نظيرهم مع تتبع المصادر الأولية- لم يسيروا إلى مصادر راجعوا إلى غير (المعتبر). وإنّ عدم نقل هذه الروايات في الكتب الحديثية الأربعة، هو خير دليل على أنّ المحقق الحلي قد أخذ رواياته المذكورة واستقاها من غير الكتب الأربعة.. ويمكن أن يظنّ -والحال هذي- بأنه قد أخذها عن كتب أصحاب الأئمة بصورة مباشرة. إنّ نقل هذا العدد الكبير من النصوص الروائية -وهي في الكتب الفقيهية الأربعة (الطهارة والصلاة والزكاة والصوم) يحكي عن وجود مصادر كثيرة أخرى كانت في عصر المحقق الحلي وفي القرن السابع الهجري القمري.

بالنظر إلى ما تقدم، يمكن القول بشكل جدي باحتمال أن يكون المحقق الحلي قد أورد ذلك الكمّ الكبير في الروايات في (المعتبر) عن غير الكتب الحديثية الأربعة، رغم أنّ المصححين والمحققين في هذا الكتاب قد أرجعوا رواياته ونسبوا إلى الكتب الحديثية الأربعة، إذ لا دليل قطعياً على نسبتهم ما جاء في (المعتبر) من روايات إليها.. وذلك أنه في غالب الموارد لم يشر إلى مصدر رواياته..

وبناء على التحقيقات التي تمت إلى الآن^٢، فإنّ كتباً حديثية في قبيل كتب حريز

١. من الضروري القول بأن كتاب (المعتبر في شرح المختصر) يشمل أربعة أبواب وكتب فقيهية فقط، وهي (الطهارة والصلاة والزكاة والصوم) ولم يكمل المؤلف كتابه هذه حيث وافته المنية وهو يحرق أوائل مبحث الحج..

٢. كاتب هذه الدراسة بمعونة الدكتور عون حسن علي -أستاذ جامعة كلارادو الأميركية- في طور تحرير مقالة بخصوص مصادر المحقق الحلي في كتاب (المعتبر). ولعلها ستطبع وترى النور قريباً.. وسيعمد إلى مزيد شرح للمطالب أعلاه..

بن عبدالله السجستاني، وعبيدالله بن علي الحلبي^١، وعبدالله بن سنان، وجميل بن درّاج، وعيص بن قاسم^٢، والحسن بن محبوب، والحسين بن سعيد، وآخرون كثر في الرواة كانوا في متناول المحقق الحلبي لدى تأليفه كتاب (المعتبر).

وكمثال على ذلك، وجدنا المحقق الحلبي قد نقل (٤٥) حديثاً عن أحمد بن محمد بن ابي نصر البزنطي، بينها ستّ مرات بعنوان (كتاب البزنطي)^٣ وستّ عشرة مرة تحت عنوان (الكتاب البزنطي الجامع)^٤.. سبعة منها لم تُنقل من الكتب الحديثية الأربعة^٥ وقد نقلها الحر العاملي أيضاً عن كتاب المعتبر^٦.

٢-١-١- العلامة الحلبي

العلامة الحلبي (٦٤٧-٧٢٦ق) صرّح بنقل الحديث عن كتب أصحاب الأئمة عليهم السلام في كتبه في عدة مواضع، هذا مع أنّ معتمد العلامة الأكبر في نقل الحديث عن كتب الطوسي. وقد صرّح في مقدمة (منتهى المطلب) أنه أكثر ما يذكر في كتابه آراء الشيخ الطوسي، ولكنه مع ذلك؛ فقد ذكر في كتابه هذا وغيره في الكتب قد أورد أحاديث كتاب (المشيخة) تأليف الحسن بن محبوب^٧ وكتاب عمار بن موسى

١. فضلاً عن الدراسة المذكورة في الهامش أعلاه، ثمّ مقالة أخرى قد كتبها قبل ذلك فيما يرتبط بكتاب عبيدالله بن علي الحلبي.. وتمّت فيها الإشارة إلى أن هذا الكتاب كان موجوداً إلى عصر المحقق الحلبي والشهيد الأول. انظر: كتب أصحاب الأئمة عليهم السلام؛ الثروة الثقافية الشيعية: كتاب عبيدالله بن علي الحلبي. محمد حسين أفرخته، مطبوع في (شيعيان متقدم) مقالة في أصول الشيعة إلى القرن الرابع.

٢. أذعن السيد الخوئي أيضاً لهذه المسألة، وهي أن كتاب عيص بن القاسم كان في يد المحقق الحلبي. انظر: (التنقيح في شرح العروة الوثقى) ٣/ ٤٨.

٣. المعتبر في شرح المختصر، ١/ ١٩٩، ٢٠٢، ٢٤٣، ٢٥٣، ٢/ ١٤٥، ٢٣٢.

٤. نفس المصدر، ١/ ٨٨، ١٤٦، ١٨٧، ١٨٨، ٣١٧، ٣٥٧، ٢/ ٢٨، ١٨٦، ١٨٨، ٢٢١، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٦٣، ٢٧٤، ٢٨٣، ٣٢٠.

٥. نفس المصدر، ١/ ٢٠٢، ٣١٨، ٣٠، ١١٣، ٢٠٢، ٢٣٢، ٢٩٥.

٦. وسائل الشيعة، ١/ ٢١٨، ٢/ ٢١٤، ٣/ ١٣٨، ٥/ ٤٢١، ٦/ ٢٤٢، ٧/ ٤٢١، ٣١٤.

٧. مختلف الشيعة، ٤/ ٤١٣، ومنتهى المطلب، ١٤/ ٣٨٦، نقل العلامة الحلبي هاتين الروايتين عن كتاب المشيخة للحسن بن محبوب.

الساباطي،^١ وكتاب يعقوب بن يزيد^٢ وكتاب (الجامع) للأحمد بن محمد بن ابي نصر البزنطي،^٣ ونقل غير هذه بشكل مباشر من هذه الكتب، وهناك أحاديث كثيرة أخرى متوفرة في مؤلفات العلامة الحلي؛ نقلت بصورة مرسلة ومصدرها غير محدد.. ومع هذا، لم تنقل هذه الأحاديث في الكتب الحديثية الأربعة المعروفة.^٤ وقد نقل محدثوا الشيعة التالون، كالشيخ الحر العاملي والعلامة المجلسي هذه الأحاديث عن كتب العلامة الحلي..^٥

٣-١-١- علماء آخرون في المدرسة الحليّة

فضلاً عن المحقق والعلامة الحليين، فإنّ ثمة علماء آخرين من مدرسة الحلة قد كانت كتب أصحاب الأئمة عليهم السلام متوفرة لديهم.

وقد نقل يحيى بن سعيد الحلي في كتاب (الجامع للشرائع) جملة أحاديث، لم ترد في الكتب الأربعة.. وقد أثار الشيخ جعفر سبحاني^٦ أيضاً في مقدمته على هذا الكتاب الى هذه النقطة.. فيما جمع المحدث النوري في كتابه شطراً من تلكم الأحاديث.^٧

وفي التحقيق الذي أجراه إتان كولبرج، أثبت وجود الكثير في كتب أصحاب الأئمة عليهم السلام في مكتبة السيد ابن طاووس. ومن بين الكتب المعروفة في هذه المكتبة الكثير من الأصول الأربع مئة للشيعة، وهي تثبت وتؤكد أنّ الكثير من كتب أصحاب الأئمة عليهم السلام كانت موجودة في القرن السابع الهجري لدى الشيعة..

١. مختلف الشيعة، ٣١٠ / ٨، أورد العلامة الحلي هذا الحديث عن كتاب عمار بن موسى.

٢. منتهى المطلب، ١٢٨ / ٧. نقل العلامة الحلي هذا الحديث عن يعقوب بن يزيد، ولكنه لم يشر الى مصدره، كما أنّ هذا الحديث لم ينقل في أيّ في الكتب الأربعة.

٣. نفس المصدر، ٤٩٥ / ٩.

٤. نفس المصدر، ٣٩ / ٥ و ٣٨٦ / ٧.

٥. وسائل الشيعة، ٢٩ / ٣، ٤١١، ٣١ / ٦ و ٥٤١، ٥٣٧ / ١٠ و ٣٩٣ / ٢٣.

٦. الجامع للشرائع ص ١٦٤.

٧. كمنوذج انظر: مستدرک الوسائل، ٤ / ٣٩، ٤٩.

٤-١-١- الشهيد الأول

بعد العلامة الحلي يمكن تتبع وجود كتب أصحاب الأئمة عليهم السلام إلى حقبة الشهيد الأول (٧٣٤-٧٨٦ ق) أيضاً. فهو أيضاً قد أورد العديد من الأحاديث في مؤلفاته عن كتب أصحاب الأئمة عليهم السلام .. وسنشير في هذا القسم إلى نماذج من ذلك.

ولقد صرح الشهيد الأول في كتابه (غاية المراد) في بحث كيفية إثبات هلال أول الشهر:

«لم أجد هذه الرواية بهذا اللفظ في كتب الحديث، بل في (المختلف). والذي رأيته في الأصول التي وصلت إلي: (أو شهد عليه بينه عدل من المسلمين)»^١.

وعبارة الشهيد الأول هذه تتضمن عدة نقاط:

١. أنه كانت عنده جملة من الأصول، وهي غير قليلة بناء على شواهد سنتناولها لاحقاً.

٢. أن الشهيد الأول - لدى اختياره الأحاديث - لم يكن ليعتمد كتب الحديث، ومنها الكتب الأربعة، وإنما كان يستخرج الروايات من الأصول أيضاً.

٣. يمكن القول إن كثيراً من النصوص الروائية التي نقلها من دون ذكر المصدر هي من كتب أصحاب الأئمة عليهم السلام بشكل مباشر.

وبغض النظر عن هذا التصريح، فإن الشهيد الأول قد نقل الكثير من كتب الأصحاب في مؤلفاته.. وكمثال على ذلك؛ رأيناه في كتاب (الذكرى) قد نقل روايات كثيرة عن كتب عبدالله بن سنان^٢، وإسحق بن عمار^٣، وحسين بن سعيد^٤، وعلي بن

١. غاية المراد، ١ / ٣٣٨.

٢. ذكرى الشيعة، ٢ / ٣٣٤، بعبارة: «روى عبدالله بن سنان في كتابه عن أبي عبدالله»

٣. نفس المصدر، ٣ / ٣٧١.

٤. نفس المصدر، ٣ / ٣٧٤، بعبارة: «روى الحسن بن سعيد في كتابه عن علي عليه السلام بإسناده» و ٣ / ٣٧٨ بعبارة «وروى الحسين بن سعيد بإسناده إلى أبي بصير عن الصادق عليه السلام»

إسماعيل الميثمي^١، وأحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي^٢، وهي جميعاً غير موجودة في المصادر الحديثية المعروفة^٣.

وفي (حاشية قواعد الأحكام) المعروفة بـ (الحاشية النجارية) وفضلاً عن الأفراد المذكورين؛ ثم أحاديث منقولة عن كتب مُسمع (باحتمال كبير هو مُسمع بن عبد الملك كردين)^٤ والعلاء بن رزين^٥ ويونس بن عبد الرحمن^٦.. وعلاوة على كتب أصحاب الأئمة عليهم السلام، هناك كتب أخرى للعلماء، مثل كتاب (الدعاء) وكتاب (الرحمة) لمؤلفهما سعد بن عبدالله كانت موجودة عند الشهيد الأول أيضاً^٧. وقد نقل الشيخ الحرّ العاملي (٣٤) حديثاً في كتابه (وسائل الشيعة) عن كتاب (ذكرى الشيعة) غير موجودة في الكتب الأربعة الحديثية المعروفة^٨.

إن تصريح الشهيد الأول في كتاب (غاية المراد) ونقل هذا العدد من الحديث في كتاب (الذكرى) في بابين فقيهين فقط - الطهارة والصلاة - يشير إلى أن الشهيد الأول كانت عنده كتب كثيرة من كتب أصحاب الأئمة عليهم السلام، وإلى أن مصادره لم تكن محدودة بالكتب الأربعة، وعلى هذا الأساس يمكن إيراد الاحتمال القائل بأن الأحاديث الأخرى التي استدلل بها في كتبه الأخرى والموجودة في مصادر أخرى، قد نقلت عن غير الكتب الأربعة، وأنه لا دليل - إلا في الموارد المصرّح بها - على أن الشهيد الأول قد نقل تلكم الأحاديث من الكتب الأربعة.

١. نفس المصدر، ٢/ ٤٣٢ و ٣/ ١٠ بعبارة: «روي علي بن إسماعيل الميثمي في كتابه عن أبي خالد القمّاط».
٢. نفس المصدر، ٣/ ١٠ بعبارة: «روي البزنطي بإسناده إلى حماد اللّخام» و ٤/ ٨.
٣. الملفت للنظر أن مصحّحي كتاب (ذكرى الشيعة) لم يذكروا لبعض هذه الأحاديث وفي أيّ من الكتب الحديثية سنداً.
٤. حاشية قواعد الأحكام (مطبوعة ضمن موسوعة الشهيد الأول) ١٤/ ٥٠٧ و ٦٣٣.
٥. نفس المصدر، ١٤/ ٢١٦.
٦. نفس المصدر، ١٤/ ١٧٩، ١٩١، ١٩٢.
٧. ذكرى الشيعة، ٢/ ٤٣٢ و ٤/ ٢٦٨.
٨. وسائل الشيعة، ١/ ١٢٧، ٢١٥، ٣٧٤ و ٣/ ٢٢٥، ٤٤٧. بحار الأنوار، ٧٩/ ٣٦٣ و ٨٢/ ٦١، ١١٨ وموارد كثيرة أخرى.

٢-١- مناقشة في تبرير الشّيخ البهائي وصاحب (المعالم):

بناءً على هذه الشواهد، فإن أصل قول العالمين والفقهاء المبرزين الشيعة - الشّيخ البهائي وصاحب (المعالم) - يواجه إشكالاً، وتبريرهما فيما يرتبط علة تنويع الحديث غير مقبول^١. وعليه؛ يبدو لازماً أن تعرض نظرية أخرى - فيما يتعلق بتنويع الحديث من قبل العلامة الحلي - متفقة بشكل أعمق مع الشواهد المتوفرة..

٢- ضرورة الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي في مطالعات تاريخ الفكر

مطالعات تاريخ الفكر معروفة ومتعارف عليها في العصر الراهن. فالكثير من المحققين يجهدون بدراسة الأفكار والقيم الإلهية والبشرية ضمن مسار واحد.. ولم يكن المذهب الشيعي مستثنىً عن هذه الشاكلة من الدراسة.. إذ شهدت العقود المتأخرة سعي كثير من الكتاب - ولا سيما الغربيون منهم - إلى دراسة الواقع الشيعي على أساس الأساليب التاريخية. وإن العديد من هذه النظريات عبارة عن نظريات انتزاعية مجردة، لا تعتمد سوى تحليل النص بعيداً عن الالتفات إلى الجوّ الحاكم عليها.. وسنشير إلى نماذج في هذا الإطار لاحقاً..

من جهة أخرى، لا بد من الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي لدى مطالعات تاريخ الفكر ودراسته، ومن دون ذلك، فإن كثيراً من النظريات المطروحة في تاريخ الفكر ستكون غير كاملة.. وهذه النظريات مع ملاحظة الجوّ الفكري الحاكم على المفكرين والعلماء ستكون فاشلة لدى تحليلها. والمؤسف في الأمر أن كثيراً من النظريات المقولة - فيما يرتبط بتاريخ الفكر الشيعي - تعاني هذا النقص.. وإنه بداعي عدم الالتفات، أو قلّة الالتفات إلى الوضع والجوّ الحاكم قد انتهت إلى الخطأ في تحليل تاريخ الفكر.. وعلى هذا الأساس؛ يجب لدى دراسة تاريخ الفكر عموماً، وتاريخ الفكر الشيعي خصوصاً أن تلاحظ الأجواء الاجتماعية..

وعلى مَرّ التاريخ، كان الشيعة يرضحون تحت عوامل الضغط الشديد من قبل الحكومات

١. في خاتمة هذا المقال سنأتي على إيضاح دليل تبرير الشّيخ البهائي والشّيخ الحز العاملي.

غير الشيعية، ومع ذلك، فقد كان الأئمة عليهم السلام بالدرجة الأولى كانوا يديرون المجتمع الشيعي مع عظيم ملاحظاتهم العقائدية والسلوكية عليهم. وبعد، جاء دور العلماء والفقهاء الشيعة.. وكان ذلك الضغط يتضاءل في بعض الحقب الزمنية، فيتاح للشيعة إظهار معتقداتهم وممارسة بعض شعائهم. وإن عصر آل بويه - البويهيين - (٣١٥-٤٤٧ق) أحد تلك العصور والمراحل التاريخية التي استطاع فيها الشيعة إظهار الكثير من معتقداتهم وممارسة شعائهم بشكل علني^١ وعلماء الشيعة في تلك الحقبة، ولا سيما الشيخ المفيد والسيد المرتضى والشيخ الطوسي قد اغتنموا تلك الفرص المتاحة بأفضل شكل ممكن واستطاعوا عرض المعتقدات الشيعية بشكل منظم وكامل. وكان مسلك هؤلاء الكبار في بيان المعتقدات الشيعية قائماً - نوعاً ما - على الاستفادة في الأدب والمصطلحات الرائجة في تلك الحقبة، مضافاً إلى الأسلوب واللغة العلمية المتعارف عليها حينذاك.

والنموذج الواضح لهذا الأسلوب يمكن مشاهدته وتلمسه في حقبة البويهيين في قبل الشيخ المفيد (٣٣٦-٤١٣ق). ففي القرن الرابع الهجري، وبداعي غلبة الفكر المعتزلي في بغداد، فصار المفيد - بهدف بيان المعتقدات الكلامية الشيعية - إلى الاستفادة في الأدبيات الكلامية المعتزلة الرائجة في ذلك الزمان^٢.

حرص عدد من المحققين الغربيين إلى التأكيد بأن الفكر الكلامي عند الشيعة قبل حقبة الشيخ المفيد لم يكن له وجود، وأنه هو من كان الأول في التأثير بالفكر الكلامي المعتزلي، مما دفع به إلى إيجاد وعرض نظام فكري منسجم لدى الشيعة^٣. وفضلاً عن

١. وكمثال، انظر بهذا الصدد: محمد حسين افراخته وحמידرضا آذري نيا، (هويت اجتماعي شيعة إماميه در قرون متقدم - تحليل تاريخي) و: تحليل اجتماعي على قصيدة ابن منير الطرابلسي، مجله إمامت بزوهي، رقم ١٦: ٢٠٩-١٥٣.

٢. بهذا الصدد، انظر: مقاله العلمية التحقيقية للمرحوم الأستاذ آية الله محمدرضا جعفري: الكلام عند الإمامية: نشأته وتطوره وموقف الشيخ المفيد منه. مجلة (تراثنا) رقم ٣١-٣٠/ ٣٠٠-١٤٧. وكذا الدكتور حسن علي في خاتمة رسالته الجامعية - الماجستير - إذ عرض نظرية مشابهة لنظرية الأستاذ محمدرضا جعفري.

٣. انظر: انديشه هاي كلامي شيخ مفيد، تأليف: مارتين مكدرموت.

الإشكالات الأساسية الواردة على هذه النظرية فكذا يمكن القول إن هذه النظرية ناشئة من عدم الالتفات إلى التاريخ الاجتماعي لحقبة البويهيين والأجواء التي كان يعيشها عالم كالشيخ المفيد.

وتشبه الأجواء البويهية، أجواء حكومة المغول، وقبل هاتين الحقتين، كانت حقبة سلالتين متطرفتين حكم فيها السلاجقة والخوارزمشاهيين الذين لم يقصّروا في إيذاء الشيعة والضغط عليهم. وبعد هجوم وحملة المغول.. تسنى جو سياسي في اليسر والانفتاح على الصعيد الاجتماعي، حيث أتيح لجميع الفرق والجماعات الفكرية الحديث عن معتقداتها في المجتمع المسلم.

وفيما يلي سيأتي الحديث بخصوص هذا القسم من تنويع الحديث من قبل العلامة الحلي، ولكن قبل ذلك ينبغي التحقيق في نوع نظرة علماء مدرسة الحلة فيما يخص الأحاديث الضعيفة..

٣- المحقق الحلي والروايات الضعيفة

وجه المحقق الحلي في مقدمة كتابه النقد إلى نظرة أفراد عدّوا الروايات الصحيحة أو السليمة السند معياراً.. فقال:

«أفرط الحشوية في العمل بخبر الواحد؛ حتى انقادوا لكل خبر، وما فطنوا ما تحته من التناقض، فإن من جملة الأخبار قول الصادق عليه السلام: «إن لكل رجل مّتا رجل يكذب عليه». واقتصر بعض عن هذا الإفراط، فقال: كل سليم السند يعمل به، وما علم إن الكاذب قد يلصق والفاست قد يصدق، ولم يتنبّه أنّ ذلك طعن في علماء الشيعة وقدر في المذهب، إذ لا مصتّف إلا وهو قد يعمل بخبر المجروح كما يعمل بخبر الواحد المعدّل. وأفرط آخرون في طرف ردّ الخبر حتى أحال استعماله عقلاً ونقلاً. واقتصر آخرون؛ فلم يروا العقل مانعاً، لكن الشرع لم يأذن في العمل به.. وكل هذه الأقوال منحرفة عن السنن، والتوسط إصوب، فما قبله الأصحاب أو دلّت القرائن على صحته؛ عمل به، وما أعرض

١. كاتب هذه الدراسة، أورد سبعة إشكالات أساسية على هذه النظرية.

الأصحاب عنه أو شدّد، يجب اطراحه.^١

فالمحقق الحلّي في هذه العبارات يتوجه بالنقد إلى الأفراد الذين يشترطون سند الرواية للعمل بها.. ويؤكد أنّ هؤلاء الأفراد لم يلاحظوا أنّ الإنسان الكاذب لا يمارس الكذب على سبيل الإطلاق، إذ لعل الفرد الفاسق يمكن أن يصدر عنه عمل سليم أو قول صادق.. ومن جهة أخرى؛ فالمحقق الحلّي يذهب إلى أنّ اشتراط صحة السند في العمل بالرواية نوع طعن بعلماء الشيعة، وذلك لاستحالة العثور على عالم لا يعمل بالخبر الضعيف. وفي الختام، وبعد نقل الأقوال المختلفة في هذا الإطار، رأينا يذهب إلى أنّ جميع هذه الآراء قد ابتعدت عن المسار الصحيح، وإلى أنّ الأجدى اختيار الطريق الوسط، وهو ما عمل به علماء الشيعة، أو ما لازمته قرائن الصحة ودلت عليه.. فهو يعمل به.

ويبدو أنّ من أهمّ القرائن من وجهة نظر المحقق الحلّي في صحة الرواية الضعيفة؛ عدم وجود رواية معارضة لها. وهو في موارد كثيرة في (المعتبر) قد قبل روايات ضعيفة وعمل بها وأفتى على أساسها بداعي عدم توفر ما يعارضها من الروايات.. وهو في بعض الموارد ضمّ عمل الأصحاب إلى الرواية الضعيفة الخالية عن رواية معارضة، فعمل بها.. وهذه الموارد كثيرة جداً؛ نشير إلى شطر منها:

المحقق الحلّي وبعد نقل روايتين في وجوب الغسل بعد اسقاط الجنين المستوي الخلقة، مع انقطاع السند في الرواية الأولى وضعف سماعة بن مهران^٢ الوارد اسمه في طريق الرواية الثانية.. وهاتان الروايتان قد عمل بها لعدم وجود المعارض، مضافاً إلى عمل الأصحاب بهما.. قال:

«ومن طريق الأصحاب ما رواه أحمد بن محمد عن محمد بن زكريا قال: >إذا تمّ للسقط أربعة أشهر، غُسل<، وروى زراعة عن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: >سألته عن السقط إذا

١. المعتبر في شرح المختصر، ٢٩/١.

٢. اعتبر بعض علماء الشيعة، منهم الصدوق والطوسي؛ سماعة بن مهران واقفياً. (من لا يحضره الفقيه، ١٢١/٢ والرجال للطوسي، ص ٣٣٧) ولكن على أساس الشواهد التي أوردها السيد الخوئي فإن اعتبار سماعة واقفياً لا يبدو أمراً سليماً. انظر: معجم رجال الحديث، ٨ / ٢٩٩-٣٠٠. ومع ذلك، فإن عدم واقفية سماعة بن مهران لا يחדش بأصل البحث.

استوت خلقتها، يجب عليه الغسل واللحد والكفن؟ قال: «نعم؛ كل ذلك يجب إذا استوى»^١ ولمطعن على الروائتين بانقطاع سند الأولى وضعف سماعة في سند الثانية، لأنه لا معارض لها مع قبول الأصحاب لهما»^٢.

٢- بعد ذكر المحقق ضمن بحث (الأسار) روايتين عن عمار بن موسى الساباطي الذي هو من أعلام الفطحية وعلي بن أبي حمزة البطائني وهو من أعلام الواقفة.. كتب: «لا يقال: علي بن أبي حمزة واقفي؛ وعمار فطحي؛ فلا يعمل بروايتها.. لأننا نقول: الوجه الذي لأجله عمل برواية الثقة قبول الأصحاب وانضمام القرينة، لأنه لولا ذلك؛ لمنع العقل من العمل برواية الثقة، إذ لا وثوق بقوله.. وهذا المعنى موجود هنا، فإن الأصحاب عملوا برواية هؤلاء كما عملوا هناك.

ولو قيل: فقد رد رواية كل واحد منهما في بعض المواقع. قلنا: كما ردوا رواية الثقة في بعض المواضع متعللين بأنه خبر واحد، وإلا فاعتبر كتب الأصحاب؛ فإنك تراها مملوءة من رواية علي المذكور وعمار، على أن لم نر من فقهاءنا من رد هاتين الروائتين، بل عمل المفتين منهم بمضمونها»^٣.

نلاحظ هنا أن المحقق الحلبي عدّ انضمام القرينة واحدة من قرائن العمل بالرواية الضعيفة.

٣- المحقق وبعد نقله رواية علي سندها إشكالان: أحدهما: وجود عبدالله بن بكير؛ الفطحي المذهب على المشهور. والآخر: كونها مرسلة.. ولكنه - المحقق - قبل الرواية بدليل عدم وجود رواية معارضة لها. قال:

«لما رواه ابن بكير عن بعض أصحابنا عن أبي عبدالله عليه السلام «في جنائز الرجال والصبيان والنساء، قال: توضع النساء ممّا يلي القبلة والصبيان دون الرجال دون ذلك» وهذه وإن

١. نقل هذان الحديثان في كتاب (تهذيب الأحكام) بهذا الشكل. انظر: تهذيب الأحكام ١٠ / ٣٢٨ - ٣٢٩.

٢. المعتبر في شرح المختصر، ١ / ٣١٩.

٣. نفس المصدر، ١ / ٩٤.

كان سندها ضعيفاً؛ لكنها سليمة عن المعارض.^١

وشبيه هذا الكلام تمّ بيانه في مورد رواية أخرى عن عبدالله بن بكير أيضاً كما أن (المعتبر) توفّر على موارد كثيرة، عمل فيها المحقق الحلبي وقبلها لانعدام ما يعارضها وأفتى على أساسها^٣.

٣-١- ردّ الرواية الضعيفة بدليل الضعف حال التعارض

في أغلب الموارد التي ردّ فيها المحقق الحلبي حديثاً بدليل ضعف السند، إنما كان أيضاً لمعارضة حديثاً صحيحاً.. وهذه الموارد خارجة عن حدّ الحصر في هذه الدراسة الموجزة، وإنما هنا نشير إلى نموذج واحد.

فبعد نقله رواية عن عمار بن موسى الساباطي، أشار المحقق الحلبي إلى كونه فطحياً وقال: «ورواية عمار، وإن كان ثقة، لكنه فطحى؛ فلا يعمل بها مع وجود المعارض السليم»^٤.



٤- غاية العلامة الحلبي من تنويع الحديث: إيضاح رأي الشيعة في المجتمع المسلم..

حدثت الهجمة المغولية على العراق، وكان للعلامة الحلبي ثمان سنوات من العمر، وحصل انفتاح سياسي إذ ذاك، فأتيحت له الفرصة باعتباره أكبر علماء الشيعة في تلك الحقبة ليعرّش ويوضح آراء الشيعة في مختلف المواضيع الفقهية والكلامية وحتى الفلسفية. وقد كان الكمّ الكبير جداً لمؤلفاته شاهداً على هذا المدّعى.

وكان قد راج وانتشرين محدّثي المخالفين - من مطلع القرن الثالث الهجري وإلى اليوم - تقسيم للحديث على ثلاثة أشكالٍ وعناوين: الصحيح والحسن والضعيف،

١. نفس المصدر، ٢ / ٣٥٤.

٢. نفس المصدر، ٢ / ٥٨٩.

٣. نفس المصدر، ١ / ٤٩، ٢٥٢، ٦٢، ٦٠ (موردان)، ٣١٧ موارد كثيرة أخرى.

٤. نفس المصدر، ١ / ٦٧.

ولطالما استعمل محدثوا أهل الخلاف، مثل البخاري ومسلم والترمذي والنيشابوري والآخرين هذه المصطلحات والعناوين في إيضاح وتقسيم الروايات في مؤلفاتهم..

وبناء على ما تقدم فيما يرتبط باستعمال هذه المفردات والتقسيمات، عمد العلامة الحلي - كما يبدو - إلى استعمال هذه الاصطلاحات أيضاً أي أن العلامة الحلي لدى بيانه آراء الشيعة ومواقفهم في مجتمع ذلك اليوم كما هو رائج ومعروف إذ ذاك بين أهل الخلاف. وإن كان قد اتهم في جهة بعض العلماء الذين تلوا حقبته بالتأثر ومجاراة المخالفين ولكن يبدو أن العلامة الحلي لم يستفد إلا من مصطلحاتهم، وقد تمكن - في تلك الحقبة المضطربة سياسياً واجتماعياً - من عرض وبيان آراء الشيعة ومواقفهم وتعريف الفقه الشيعي للآخرين.

وإن أحد المظاهر المهمة لخطوة العلامة الحلي هذه ونتائجها، كان انتشار التشيع بعد الحملة المغولية التي انتهت بتأسيس الدولة الصفوية في أوائل القرن العاشر^١.

وفضلاً عن ذلك، يبدو أن العلامة الحلي الذي كان هو المبدع لنظرية «تقسيم وتنويع الحديث» لم يكن متقيداً بهذا المعنى، وقد حرر كتبه ضمن جملة أساليب في هذا المضمار. وإن مصطلحات تقسيم الحديث المستعملة في مؤلفات العلامة، كان أهل الخلاف من المشمولين في خطابها.. والحقيقة هي وجوب القول بأنه إنما تابع أسلوب من سبقه من العلماء، ولا سيما الشيخ الطوسي وإنما الطريقة التي اعتمدها العلامة الحلي في تنويع الحديث، هي في حقيقتها نوع تحديد للمصطلحات والسميات لأسلوب الشيخ الطوسي الفقهية.. وليست إبداعاً من عنده..

وهذه الدراسة في واقعها تقرير عن تحقيق مفصل وكامل سيعمد إلى نشره مستقبلاً ضمن دلائل ووثائق وأسانيد كثيرة. وإن المعتمد الأصل لهذه الدراسة كتابان فقيهان استدلاليان للعلامة، أي: (منتهى المطلب) و (مختلف الشيعة) وسيتم عرض أكثر الشواهد من هذين الكتابين..

١. بعنوان مطالعة في هذا الإطار، حرر المؤلف دراسة بخصوص ضرب السكك باسم إمام الزمان (عليه السلام) في تلك الفترة، في العدد (١٩) لمجلة (امامت پژوهي) ..

٤-١- تفاوت كتب العلامة الحلي

من بين كتب العلامة الحلي الكثيرة جداً في الفقه، ثم ثلاثة كتب، هي (منتهى المطلب) و (مختلف الشيعة) و (تذكرة الفقهاء)، لها أهميتها الخاصة بداعي استدلالها وتفصيلها؛ فكانت أهميتها تفوق أهمية كتبه الأخرى.. وإن التحقيق في طريقة العلامة في تأليفها له أن يكشف طريقة العلامة واسلوبه وموقفه من أحاديث الشيعة.. وهذه الكتب الثلاثة فيها من التفاوت بينها من عدة جهات اساسيه.

١- أن كتابي (منتهى المطلب) و (تذكرة الفقهاء) قد ألفا في الفقه المقارن، إذ عمد العلامة الحلي في هذين الكتابين وفي ذيل كل مسألة إلى ذكر آراء علماء جميع فرق أهل القبلة.. وفي الوقت نفسه، كان معتمده الأصل في هذين الكتابين، ولاسيما (منتهى المطلب) نقل آراء الشيخ الطوسي^١.. وكما في الاصطلاح، فإن هذين الكتابين قد حُررا لما خارج الاطار الشيعي، بعيداً عن التقيد المذهبي.. وخلافاً لهذين الكتابين، هناك كتاب (مختلف الشيعة) الذي اكتفي فيه - باستثناء موارد محدودة - بذكر آراء علماء الشيعة.. ولذا؛ فإن من الممكن القول فيه بأنه كتاب ضمن الدائرة الشيعية.

٢- كتابا (منتهى المطلب) و (تذكرة الفقهاء) ناقصان ولا يتضمنان كافة الأبواب الفقهية، ولكن كتاب (مختلف الشيعة) بمثابة دورة فقهية شيعية كاملة.

٣- في كتابي (منتهى المطلب) و (تذكرة الفقهاء) لم يتم التطرق التام إلى اختلافات علماء الشيعة. أما كتاب (مختلف الشيعة) فقد اختص بهذا الأمر كما يحكي عنوانه.

إذ في هذا الكتاب لم يتم تجاهل ولورأي فقيه شيعي في فرع فقهي يخالف الفقهاء الشيعة الآخرين. وإن كان الاختلاف الحاصل في الحرمة والكراهة والوجوب والاستحباب.. وعُمد إلى بحثه وشرحه.

وفي حيث الزمان، كان كتاب (منتهى المطلب) أول كتاب فقهي استدلالي للعلامة

١. اشار العلامة الحلي نفسه في مقدمة كتابه إلى هذه المسألة. انظر: منتهى المطلب، ١/١٠.

الحلي كتبه في سنة (٦٨٠ ق)^١ ثم تلاه كتاب (مختلف الشيعة)^٢ ثم تلاه كتاب (تذكرة الفقهاء)^٣.

قبل الفرض الأول، وقبل مطالعة هذه الكتب الثلاثة، وبالنظر إلى التفاوت والاختلاف الثاني والثالث.. فإن كتاب (المختلف) وبداعي جامعيته وذكره اختلافات الشيعة، قد استفيد فيه من مصطلحات وأدبيات تقسيم الحديث وتنويعه.. ولكن إمعان النظر ومقايضة هذه الكتب الثلاثة يستتبع نتيجة معاكسة تماماً.

ثم إن مقايضة الثلاثة المذكورة علامة التفاوت المقصود في طريقة تأليفها. فمصطلحات تنويع الحديث في كتابي (المنتهى والتذكرة) مشهودة بكثرة.

والعلامة في هذين الكتابين وصف روايات بكونها صحيحة و حسنة و موثقة او ضعيفة، وذلك لمرات عديدة، ولكنه في كتاب (المختلف) لم يستعمل مثل هذه المصطلحات إلا نادراً.. ويبدو أن هذا التفاوت في طريقة التحرير ناشئ من التفاوت في مخاطبي العلامة، ويمكن نسبته أيضاً إلى الفرضية الابتدائية الواردة في هذا المقال، وهي استعمال المصطلحات والمفردات الرائجة في ذلك الحين. فالعلامة الحلي في كتابي (المنتهى والتذكرة) كان بصدد تعريف ونشر الفقه الشيعي إلى وفي اجواء غير شيعية. فاستعمال المصطلحات الرائجة كانت الغاية منه المخاطبة.. أما في كتاب (المختلف) حيث كان مخاطبوا العلامة مجتمع الشيعة.. فلم تكن ثم حاجة إلى تنويع الحديث مع كاملية الكتاب و مع بحثه الخلافات..

٤-٢- تقسيمات الحديث في مؤلفات العلامة الحلي

أبدي العلامة الحلي في مؤلفاته، وفي مقدمة كتابه (منتهى المطلب) تعريفه تقسيمات

١. صرح العلامة في مقدمة الكتاب أنه ألفه في سنه الثانية والثلاثين (من عمره الشريف). انظر: نفس المصدر.

٢. يكتب الشيخ آقا بزرك أن بعض نسخ (مختلف الشيعة) قد رآها وكان تاريخ إتمامها سنة (٦٩٩ ق) انظر: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ٢٠ / ٢١٨.

٣. احتمل الشيخ آقا بزرك -وعلى اساس تاريخ اتمام بعض الابواب الفقيهه لهذا الكتاب- أن تكون بداية تأليفه في سنة (٧١٠) انظر: نفس المصدر، ٤ / ٤٤.

الحديث المتعدده، إذ كتب في مقدمته الثامنة عن التقسيمات المذكورة بما أدناه:
 «إنه قد يأتي في كتابنا هذا... وقد يأتي في بعض الأخبار أنه الصحيح، ونعني به: ما كان رواه ثقات عدولاً، وفي بعضها في الحسن، ونريد به: ما كان بعض رواه قد أثنى عليه الأصحاب، وإن لم يصرحوا بلفظ التوثيق له؛ وفي بعضها في الموثق، ونعني به: ما كان بعض رواه من غير الإمامية؛ كالفطحية والواقفية وغيرهم، إلا أن الأصحاب شهدوا بالتوثيق له»^١

فكما يلاحظ، قد عرض العلامة الحلي المنتهى المطلب توضيحاً فيما يرتبط بالحديث الصحيح والحسن والموثق، فيما امتنع عن تعريف الحديث الضعيف.. فلو كان هدف العلامة بيان تقسيمات جميع الحديث، فكان لابد له من بيان تعريف الحديث الضعيف.

٥- مستوى التزام العلامة الحلي بالتقسيمات المذكورة

رغم أن العلامة الحلي هو الذي أدخل تقسيمات الحديث في الساحة الروائية والفقهية لدى الشيعة، إلا أن النقطة المهمة تحقيق مد ميزان ومستوى التزام العلامة الحلي بهذه التقسيمات في تراثه الفقهي. فلدى مراجعة كتب العلامة الحلي يمكن القول أنه في كتبه لم يكن له ذلك الالتزام الكبير بنتائج تقسيمات الحديث.. وهو في موارد كثيرة، قد استند إلى أحاديث ضعيفة - حسب التقسيمات الراجحة هذه - في فتاواه. والعلامة الحلي - وبذلكه المعروف، ولتحقيق هدفه في بيان آراء الشيعة في ذلك العصر؛ قد استثمر الأحاديث الضعاف بحيث لا يتسنى إدراكها إلا بمطالعة دقيقة في كتبه.

وهذا الرأي لا يؤدي إلى القول بوجود اضطراب في الطريقة الفقهية للعلامة الحلي، وإنما هو مؤيد المدعى الابتدائي في هذه الدراسة فيما يرتبط باستثمار العلامة للأدبيات والمصطلحات التي كانت رائجة معهودة في تلك الحقبة، من دون الالتزام العملي بتلك التقسيمات.. وإن التفاوت المشهود في تأليف العلامة لكتبه المتنوعة من شأنه تقوية هذا الاحتمال.

١. منتهى المطلب، ٩/١ و١٠.

٥-١- الروايات الضعيفة في كتاب (منتهى المطلب)

بمراجعة كتاب (منتهى المطلب) ينبغي القول إن العلامة الحلي قد تعامل مع الروايات الضعيفة بشكلين، وإنه لابد من التفكيك بينهما: مقام العمل بالرواية، ومقام التعارض:

٥-١-١- العمل بالروايات الضعيفة في كتاب (منتهى المطلب)

العلامة الحلي في كتابه (منتهى المطلب) ولدى العمل بالرواية، فإن كانت الرواية صحيحة أو حسنة أو موثقة، أشار إليها بصفتها وعنوانها ثم استدل بها..

وفي هذه الحالة عادةً، وكان المصدر الأصل لدى العلامة الحلي في نقل الحديث كتاب (تهذيب الأحكام) للطوسي، تراه يستعمل القول: «روي الشيخ في الصحيح» أو: «في الحسن» أو: «في الموثق». أما إذا كان الحديث ضعيفاً، ومال العلامة إلى الإفتاء على أساسه، فإنه لا يذكر شيئاً عن ضعفه أبداً.. والحقيقة هي أن العلامة الحلي إذا أراد الإفتاء على أساس الحديث الضعيف، فإنه لا يشير أبداً إلى صفته وضعفه.. وإنه في جميع الموارد التي لم يشرف فيها العلامة الحلي إلى صفة الحديث؛ فهو حديث ضعيف تبعاً ولكنه أفتى على أساسه، وعند مراجعة كتب الحديث يتبين ضعف الحديث، من قبيل ضعف الراوي أو الإرسال أو الاضمار أو سائر أسباب الضعف.. وإن الشواهد المتوفرة في كتاب (منتهى المطلب) على هذا كثيرة جداً، وإن الموارد التي سلكها العلامة بهذا المسلك عديدة جداً.. ويكفي أنه في الموارد التي لم يتكلم فيها العلامة - في مقام العمل بالرواية - واكتفى بإيراد عبارة: «روى الشيخ بسنده» أن ينظر إلى المصادر الروائية ليتبين مدى الضعف فيها.. والمسألة المهمة هنا، أنه لدى توفر عدة أحاديث ضعيفة خاصة بحكم واحد، ولكن العلامة يتجرد عن الإشارة إلى ضعف الحديث ويعمد إلى الإفتاء على أساسه.

ونموذج آخر؛ أن العلامة الحلي طالما أفتى بناءً على مراسلات ابن أبي عمير، مع أنه

١. في جميع هذه الموارد استعمل العلامة الحلي عبارة: «روى الشيخ».

لم يذكر المشهور بين علماء الشيعة فيما يرتبط بقبول مراسلات المشايخ الثلاثة.^١

وفضلاً عن الأسلوب المذكور أعلاه، فإن العلامة الحلي قد استعمل في كتابه (المنتهى) اصطلاحات خاصة؛ لم يستعملها في أي من كتبه الأخرى.. اصطلاحات من قبيل: «موافق للمذهب» أو «مناسب للمذهب» حيث تكررت في كتاب «منتهى المطلب» كثيراً.^٢

وفي جميع هذه الموارد؛ يصرح العلامة بأنه مع وجود الضعف في الرواية إلا أنه يُعمل بها لا تصافها بهذه الميزة.

وبالنظر إلى ميزة كتاب (منتهى المطلب) وأنه يخاطب من هم خارج الدائرة الشيعية -الفرضية الأصلية في هذه الدراسة- فإنه يلزم القول بأنه لما كانت غايته إيصال الصوت الشيعي إلى مجتمع مخالف أهل البيت (عليه السلام)، فقد جهد في استثمار المصطلحات المشهورة في تلك الحقبة بينهم.. وفي كتاب (منتهى المطلب) الذي كتب للشيعة و غير الشيعة، والذي تضمن رأي المخالفين أو آراءهم في ذيل كل مسألة، كان من اللازم استعمال المصطلحات المشار إليها بكثرة.. فيما عمد العلامة الحلي لدى قبوله حديثاً ما، وكان في عداد الضعاف في حيث السند، فإنه لم يورد كلمة واحدة حتى بخصوص ضعفه.. ثم أفتى بناءً عليه.

٥-١-٢- الروايات الضعيفة في مقام التعارض

ما تقدم القول فيه كان فيما يرتبط بسلوك العلامة الحلي تجاه الروايات الضعيفة، وفي مقام العمل بها.. وعلى الضفة الأخرى، فإن العلامة في مقام التعارض بين روايتين أو أكثر، حيث يكون بعضها صحيحاً وبعضها حسناً وبعضها موثقاً، وبعضها ضعيفاً.. فياترى كيف كان موقفه وعمله تجاه ذلك كله؟!

١. نفس المصدر، ٢ / ٢٧٢ و ٣ / ٢٧ و ٢٨٩، وموارد أخرى.

٢. كنموذج، انظر: نفس المصدر، ١ / ١١٣، ١٥٧، ١٦٨ (موردان)، ٢٧٧. و ٢ / ٣٥٢ و ٤ / ٣٦٤ و موارد أخرى.

في كتابه (منتهى المطلب) إنما يبحث العلامة الحلي عند معارضة الرواية الضعيفة للنماذج الأخرى؛ ضعف الرواية.. ثم يعمد إلى طرحها لهذا السبب.. وفي الواقع، حين يطرح العلامة حديثاً بداعياً ضعفه، فذلك حين تكون جميع الروايات متعارضة. بدليل اختلاف الحديث الضعيف مع الحديث الصحيح أو الحسن أو الموثق.. فإنه لا يستند إلى الضعيف، بل يفتي بناء على الأحاديث الأخرى.. وهذا الأسلوب هو ما كان الشيخ الصدوق والطوسي يعملان به في كتبهما^١.

٥-٢- مصطلحات العلامة الحلي في كتاب (مختلف الشيعة)

بالنظر إلى ميزة كتاب (مختلف الشيعة) الداخلية المتعلقة بمخاطبة الشيعة لاسراهم، فإنه يمكن القول بأن مصطلحات و أسلوب هذا الكتاب يختلف مع ما للكتابين الآخرين، ويضاف إلى هذا أن كتاب (المختلف) من حيث الزمان، قد أُلّف بعد كتاب (المنتهى)، وعلى هذا الأساس تكون الفرضية الابتدائية على أساس تأثر كتاب (المختلف) بكتاب (المنتهى) من حيث الاصطلاحات في تقسيمات الحديث.. هذا من حيث الأمر النظري؛ أما العملي، فالأمر ليس كذلك، إذ العلامة في كتابه الثاني لم يتأثر بكتابه الأول أبداً

٥-٢-١- الاستفادة الأقل من مصطلحات تقسيمات الحديث

أدبيات و مصطلحات العلامة الحلي في كتاب (مختلف الشيعة) ذي البعد الداخلي التام، اقتصر على الإشارة إلى الصحيح في الأحاديث. وإن جميع الموارد التي استعمل فيها العلامة الحلي مصطلح «الضعيف» كعبارة: «في الضعيف» و «في سنده ضعف» وأمثال ذلك، فإنها لا تتجاوز العشرين مورداً في الكتاب كله.

والعلامة الحلي في كتابه (مختلف الشيعة) لم يصف الحديث بالصحيح إلا حين يكون صحيحاً، وفي حال العمل بالحديث الضعيف، فقد عمل بها دون الإشارة إلى ضعفها.. وحين تعارض الروايات، يعمد العلامة إلى بحث أسانيدها، ولكنه لم يستعمل

١. كنموذج، انظر: من لا يحضره الفقيه، ٢ / ١٢١ و ٤ / ٣٣٤، وتهذيب الأحكام، ٧ / ١٠١، ٣٦١ و ٩ / ٧٧ و موارد كثيرة أخرى.

مصطلح «ضعيف» فيما لم يستعمل مصطلح «مرسل» كما هو المتعارف في الأدب الفقهي والأصولي الشيعي.. وهكذا كان مسلك من سبقه من علماء الشيعة، لا سيما الطوسي منهم.

٥-٢-٢- العمل بمرسلات المشايخ الثلاثة

البحث في حجية مراسيل محمد بن أبي عمير وصفوان بن يحيى وأحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي كان مطروحاً بين علماء الشيعة منذ القدم. وقد عاجله الشيخ الطوسي هذا المطلب في كتاب (عدة الأصول)^١ والكثير من علماء الشيعة قد قبلوا هذه المرسلات على هذا المبنى وأفتوا بهذه الروايات، أو عدّوا الأفراد الذين رووا عن هؤلاء الأفراد ثقات^٢.

وقد قبل العلامة الحلي في كتابه (مختلف الشيعة) هذه القاعدة، وأفتى على أساسها في موارد عديدة^٣. ولم تجر الإشارة إلى هذه القاعدة في كتاب (منتهى المطلب)، ولكن العلامة أستاذ في فتواه في موارد عديده على مرسلات هؤلاء الأشخاص الرواة.. والملفت للنظر أن العلامة في معظم هذه الموارد استعمل عبارة: «روى الشيخ في الصحيح عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابنا».

٥-٢-٣- اعتماد قاعدة إجماع (رجال الكشي)

في (رجال الكشي) ذكر جماعة من أصحاب الأئمة عليهم السلام على أنهم أصحاب الإجماع، وأنهم جماعة حصل الأجماع من علماء الشيعة على كونهم أفراداً ثقات^٤. ولم تر إشارة في كتابي (المنتهى) و (التذكرة) إلى هذه القاعدة باعتبارها قاعدة خاصة بالجو الشيعي، أما في كتاب (المختلف) فقد تمت الفتوى على أساسها في عدة حالات، حيث اعتمدت روايات هؤلاء الأفراد^٥.

١. العدة في أصول الفقه، ١/١٥٤.

٢. كنموذج؛ انظر: تعلية على منهج المقال، ١/١٤٦ و ١٤٧، ويذهب فقهاء الشيعة أيضاً إلى هذا.

٣. مختلف الشيعة، ١/٢٥٣، ٢٨٤، ٢٨٦، ٤١١ و ١٤٠/٥ و ٦٩/٧ و ٣٦٠/٨ و موارد أخرى.

٤. رجال الكشي، ص ٢٣٨، ٣٧٥، ٥٥٦.

٥. مختلف الشيعة، ٢/٢٠٨ و ٣/٧١، ١٤٥ و ٧١/٧ و موارد أخرى.

٥-٢-٤ - العمل بمرسلات كبار علماء الشيعة

فضلاً عن هذا، فإن العلامة الحلي في كتابه (مختلف الشيعة) قد افتى ببناءً على
مرسلات علماء الشيعة الكبار، فهو في بعض فتاواه في هذا الكتاب استند إلى مرسلات
الشيخ الصدوق والشيخ المفيد وابن أبي عقيل، وأدناه نماذج مما ذكر:

أ- رسالة الشيخ الصدوق

في بحث حرمة استيفاء الأجر على الأذان^١ نقل العلامة حديثاً مرسلًا واحداً فقط من
كتاب (من لا يحضره الفقيه)،^٢ ثم قال:

«لا يقال: هذا الحديث مرسلٌ فلا يكون حجةً... لأننا نقول: أمّا الأول؛ فلأنه وإن كان
مرسلًا؛ لكن الشيخ أباجعفر بن بابويه من أكابر علمائنا؛ وهو مشهور بالصدق والثقة
والفقه، والظاهر من حاله أنه لا يُرسل إلا مع غلبة ظنه بصحة الرواية، فحصل الظنّ بهذه
الرواية، فتعيّن العمل بها؛ خصوصاً وقد اعتضدت بفتوى الأصحاب إلّا من شدّ»^٣

ب- رسالة الشيخ المفيد

في بحث من وجب عليه الحج وانطلق إلى مكة، ولكنه يموت في الطريق.. كتب
بعد نقله رواية من كتاب (المقنعة):^٤

«وقال المفيد في (المقنعة): قال الصادق عليه السلام: «من خرج حاجاً فمات في الطريق،
فإنه إن كان مات في الحرم فقد سقطت عنه الحجة، وإن مات قبل دخوله الحرم لم
يسقط عنه الحج؛ فليقض عنه وليه». وهذا الشيخ ثقة تقبل مراسيله كما يُقبل مُسنده»^٥.

١. يلاحظ بدقّة أنّ حكم العلامة بالحرمة دون الكراهة، ليكون الحديث عن قاعدة التسامح في
أدلة السنن.

٢. كتاب: من لا يحضره الفقيه، ٣ / ١٧٨: «وأنتى رجل أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين! والله إنني
لأحبك، فقال له: ولكنني أبغضك! قال: ولم؟ قال: لأنك تبغي في الأذان كسباً وتأخذ على تعليم
القرآن أجراً».

٣. مختلف الشيعة، ٤ / ١٦، ١٧.

٤. المقنعة، ص ٤٤٥.

٥. مختلف الشيعة، ٤ / ١٦، ١٧.

ج-مرسلة ابن أبي عقيل العماني

في بحث تقسيم غنائم اموال البغاة كتب العلامة الحلي بعد نقل فتوى واستدلال ابن أبي عقيل برواية واحدة:

«واستدل ابن ابي عقيل بما روى أن رجلاً من عبد القيس قام يوم الجمل فقال: يا أمير المؤمنين! ما عدلت حين تقسم بيننا أموالهم، ولا تقسم بيننا نساءهم ولا أبناءهم!؟ فقال له: «إن كنت كاذباً فلا أمانك الله حتى تدرك غلام ثقيف، وذلك أن دار الهجرة حرمت ما فيها؛ ودار الشرك أحلت ما فيها، فأيكم يأخذ أمه من سهمه؟» فقام رجل فقال: وما غلام ثقيف يا أمير المؤمنين؟ قال: «عبد لا يدع لله حرمة إلا هتكها». قال: يقتل أو يموت؟ قال: «بل يقصمه الله قاصم الجبارين». والأقرب ما ذهب إليه المشايخ الثلاثة لنا مارواه ابن أبي عقيل، وهو شيخ من علمائنا؛ تقبل مراسيله؛ لعدالته ومعرفته»^١.



النقاط أعلاه تؤكد أن مصطلحات العلامة الحلي في كتاب (المختلف) ذات منحى يخاطب الشيعة والأجواء الشيعية الخاصة، خلافاً لكتاب (المنتهى) حيث المخاطب فيه أهل السنة أيضاً.. ومن هنا، فقد استعمل العلامة مصطلحاتهم التي يعرفونها فيما بينهم.

٦- المحقق والعلامة الحليّان استمرار لمنهج الطوسي

بالبناء على ما تقدم، اتضح أنّ المحقق الحلي والعلامة الحلي يعملان بالروايات الضعيفة لدى عدم وجود المعارض لها.. وهناك شواهد جمة أنّ هذه الطريقة - في الحقيقة - هي نوع استمرار لمنهج الشيخ الطوسي في التعامل مع الروايات.

ويصرح هذا الأخير في مقدمة كتابه (تهذيب الأحكام) فيما يرتبط بمنهجيته في التعامل مع الروايات، وأنه يسعى إلى توجيه الروايات المتعارضة تجنباً للبحوث السندية.. قال:

١. نفس المصدر، ٤ / ٤٥١.

«ومهما تمكنت من تأويل بعض الأحاديث من غير أن أطعن في أسنادها؛ فإني لا أتعدّاه»^١

ويمكن اعتبار هذا التصريح كونه أفضل تبرير لهذا الأمر، وذلك أنّ الشيخ الطوسي في موارد كثيرة من كتابه قد عمل بروايات الأفراد الضعاف، فيما ردّ روايات هؤلاء الأفراد في موارد أخرى.. وفي الواقع؛ إن عبارة الشيخ الطوسي هذه بمثابة مفتاح أصل لدى مطالعة كتاب (تهذيب الأحكام) مما يشير إلى أنه يعتمد منهجية تقديم المتن على الراوي، وأنه يضع البحوث السندية في الدرجة الثانية وفضلاً عن ذلك؛ فقد أكد الشيخ الطوسي في كتابه (عدة الأصول) هذه المسألة. فهو في الفصل الخامس لهذا الكتاب، وفيما يرتبط بقرائن صحّة الأخبار، وكذا في بحث تعارض الأخبار عالج بحثاً مهماً جداً.

وقد كتب الطوسي بخصوص حجّية روايات الأفراد الضعاف:

«وأما ما ترويه الغلاة والمتهمون والمضعفون وغير هؤلاء.. فما يختص بالغلاة بروايته.. وكذلك القول فيما ترويه المتهمون والمضعفون، وإن كان هناك ما يعضد روايتهم ويدل على صحتها؛ وجب العمل به، وإن لم يكن هناك ما يشهد لروايته بالصحة؛ وجب التوقّف في أخبارهم، ولأجل ذلك؛ توقف المشايخ عن أخبار كثيرة هذه صورتها ولم يرووها واستثنوها في فهارسهم من جملة ما يروونه من التصنيفات»^٢

وكلام الشيخ الطوسي هذا؛ هو القرائن على صحة أخبار الأفراد الضعاف التي صرح بها المحقق والعلامة الحلّيان.

وقد كتب الشيخ الطوسي بخصوص روايات الأفراد الفاسدي العقيدة؛ مثل الفطحيين والواقفة:

«وإذا كان الراوي من فرق الشيعة؛ مثل الفطحية والواقفة والناوسية وغيرهم؛ نُظر فيما يرويه.. فإن كان هناك قرينة تعضده، أو خبر آخر من جهة الموثقين بهم؛ وجب العمل به. وإن كان هناك خبر آخر يخالفه من طريق الموثقين؛ وجب إطراح ما اختصّوا

١. تهذيب الأحكام، ١/٣، ٤.

٢. العدة في أصول الفقه، ١/١٥١.

بروايته والعمل بما رواه الثقة.. وإن كان ما رواه ليس هناك ما يخالفه ولا يعرف من الطائفة العمل بخلافه؛ وجب أيضاً العمل به إذا كان متخرجاً في روايته موثقاً في أمانته.. وإن كان مخطئاً في أصل الاعتقاد. ولأجل ما قلناه؛ عملت الطائفة بأخبار الفطحية، مثل عبدالله بن بكير وغيره. وأخبار الواقفة مثل: سماعة بن مهران وعلي بن أبي حمزة وعثمان بن عيسى، ومن بعد هؤلاء بما رواه بنو فضال وبنو سماعة والطاطريون وغيرهم فيما لم يكن عندهم فيه خلافه^١

لقد تمسك المحقق الحلي والعلامة الحلي بهذه الطريقة، إذ تركوا روايات الأفراد الفاسدين في الدين في حال وجود و حصول التعارض بين مروياتهم ومرويات الأفراد الشيعة الإماميين..

وفي الحقيقة يتسنى القول أن التقسيم المذكور من قبل العلامة الحلي هو نوع تسمية وعنونة وجعل مصطلحات على منهجية الطوسي.. بمعنى أنه أسلوب لا يختص به العلامة الحلي ولم يكن هو من رسمه بدءاً.



٧- ضياع مصادر الحديث الشيعية في القرن التاسع و سطوة البحوث السندية

بناءً على ما تقدم: اتضح أنّ المصادر الأصلية للروايات الشيعية كانت متوفرة موجودة بأيدي علماء الشيعة حتى عصر الشهيد الأول في أواخر القرن الثامن الهجري.. وبعد استشهاد الشهيد الأول، لا تجد عالماً كبيراً مميزاً بين علماء الشيعة.. وكمثال على ذلك، لدى مراجعة كتاب (طبقات أعلام الشيعة) تأليف المرحوم الشيخ آقا بزرك الطهراني، يتضح أن أصغر مجلدات موسوعة يعود إلى القرن التاسع.. ويبدو أن في هذا القرن قد توقفت حركة انتقال المأثور الروائي الشيعي، وتحددت مصادر الموروث الحديثي الشيعي بالكتب الأربعة.. حتى لكان العلماء الذين جاؤوا بُعيد القرن التاسع لم يكن عندهم غير الكتب الأربعة.. بل إن مصطلح (الكتب الأربعة) قد ظهر للوجود في مؤلفات الشهيد الثاني لأول مرة.^٢

١. نفس المصدر، ١/ ١٥٠-١٥١.

٢. الروضة البهية، ١/ ٣٤٤ و ٢/ ٣٣٦ و ٧/ ٢٢٥. مسالك الأفهام، ٥/ ٣٤٣ و ٩/ ٢٩٠ و ١٥/ ١٩٢، ٤٩٨ و موارد أخرى.

ولطالما أشار الشهيد الثاني في مؤلفاته إلى عدم وجود الدليل على الفتوى^١. وابن الشهيد الثاني؛ صاحب (المعالم) طالما شكّا في مقدمة كتابه (منتقى الجمان) عدم توفر مصادر الحديث الشيعي،^٢ بل إن جميع الكتب التي ألفت من قبل علماء القرن التاسع، مثل كتب الشهيد الثاني و (مجمع الفائدة والبرهان) و (مدارك الأحكام) وغير ذلك؛ لم تنقل فيها رواية عن مصادر الحديث لأصحاب الأئمة عليهم السلام، بلى وحتى من كتب الشيخ الصدوق^٣.. ولا يمكن اعتبار هذا المآل عائداً إلى عدم مطالعة العلماء لتلك المصادر، أو اتهامهم بقلّة التتبع في المصادر الحديثية الأولى.. وإنما ذلك ناشئ -حقاً- عن فقدان أو اندثار تلك المصادر.

ومن جهة أخرى، وبعد تأليف كتابي (بحار الأنوار) و (وسائل الشيعة) في أواخر القرن الحادي عشر، حيث اتسعت دائرة الاستناد إلى الأحاديث في الكتب الفقهية الشيعية وقد بدأ علماء الشيعة في القرون اللاحقة بالاستناد إلى روايات غير الروايات المتوفرة في الكتب الأربعة. وإنّ مقارنة كتب القرن العاشر، مثل كتب الشهيد الثاني و (مجمع الفائدة والبرهان) و (مدارك الأحكام) مع الكتب الأخرى المؤلفة بعد القرن الحادي عشر، مثل كتب الوحيد البهبهاني و (مستند الشيعة) و (رياض المسائل) و (الحقائق الناضرة) من شأنها أن تثبت هذه الحقيقة..

ويبدو أن تبرير أو إسناد العالمين الشيعيين الكبيرين، أي الشيخ البهائي و صاحب (المعالم) تقسيمات الحديث الأربع، وأنها عائدة إلى ضياع المصادر الشيعية في حقبة العلامة، غير منطبق مع الوقائع الموجودة في الموروث العلمي لعلماء مدرسة الحلة والشهيد الأول.. وكأنّ ضياع واندثار المصادر الشيعية في القرن التاسع وعدم توفرها لدى علماء تلك الحقبة، أدّى بعلماء القرن العاشر إلى الظنّ واحتمال أن تكون المصادر المقصودة قد فقدت في زمن العلامة الحلي؛ فاضطر إلى تقسيم الحديث.

١. انظر: اجازة الشهيد الثاني إلى الشيخ تاج الدين بن هلال الجزائري في بحار الأنوار، ج ١٠٥/١٤٣.

٢. منتقى الجمان، ١/١-٤.

٣. نقل في مدارك الأحكام مراراً أحاديث من كتاب علل الشرايع للشيخ الصدوق انظر: مدارك الأحكام، ١/ ١٨٢ و ٤٩/٣ و ١٢٥/٤ وعدة موارد أخرى وليس ثم أثر في هذا الكتاب لمؤلفات حديثية شيعية أخرى

فهرس المصادر

- ١- افراخته، محمد حسين «كتابهاي أصحاب أئمة عليهم السلام سرمایه فرهنگي شيعيان: كتاب عبدالله بن علي حلي».
- ٢- افراخته، محمد حسين وآذري نيا، حميدرضا، «هويت اجتماعي شيعة إمامية در قرون متقدم: تحليلي تاريخي - جامعه شناسانه بر قصيده ابن منير طرابلسي»، مجله إمامت بزوهي، عدد ١٦، السنة الرابعة، ص ١٥٣-٢٠٩.
- ٣- جعفري، محمدرضا، «الكلام عند الامامية، نشأته و تطوره و موقف الشيخ المفيد منه»، مجلة تراثنا، رقم ٣٠-٣١، ص ١٤٤-٣٠٠.
- ٤- الحلي، يحيى بن سعيد، (الجامع للشرائع)، تحقيق عدة من الفضلاء. قم، منشورات مؤسسة سيد الشهداء عليه السلام، ١٤٠٥ق.
- ٥- الخوئي، ابوالقاسم، (التنقيح في شرح العروة الوثقى)، تقريرات ميرزا علي الغروي، النجف، مطبعة الآداب، ١٣٨٠ق.
- ٦- الخوئي، أبوالقاسم، (معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة)، النجف، مطبعة الآداب ١٣٩٠ق.
- ٧- الشهيد الأول، (حاشية قواعد الأحكام)، موسوعة الشهيد الاول، ج ١٤، قم، المركز العالمي للعلوم والثقافة الإسلامية، ١٤١٥ ق.
- ٨- الشهيد الأول، (غاية المراد في شرح نكت الإرشاد)، تصحيح رضا مختاري، قم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ١٤١٤ق.
- ٩- الشهيد الأول، محمد بن مكي، (ذكرى الشيعة في احكام الشريعة)، تصحيح مؤسسة آل البيت عليه السلام، قم، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، ١٤١٩ ق.
- ١٠- الشهيد الثاني، زين الدين بن علي، (الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية)، تصحيح محمد كلاتر، النجف، منشورات جامعة النجف الدينية، ١٣٩٦ ق.
- ١١- الشهيد الثاني، زين الدين بن علي، (مسالك الأفهام إلى تنقيح شرائع الإسلام)، قم، مؤسسة المعارف الإسلامية، ١٤٢٩ق.
- ١٢- شيخ آقا بزرگ الطهراني، (الذريعة إلى تصانيف الشيعة)، بيروت، دار الأضواء، ١٩٨٣م.
- ١٣- الشيخ البهائي، (مشرق الشمسين)، مشهد، مجمع البحوث الإسلامية، ١٤١٤ق.
- ١٤- الشيخ الحر العاملي، محمد بن حسن، (تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة)، تحقيق مؤسسة آل البيت عليه السلام، قم، ١٤١١ق.
- ١٥- الشيخ الصدوق، محمد بن علي، (كتاب من لا يحضره الفقيه)، تصحيح علي أكبر غفاري، قم، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجامعة المدرسين، ١٤٢٩ق.
- ١٦- الشيخ الطوسي، محمد بن حسن، (العدة في أصول الفقه)، تصحيح محمدرضا أنصاري قم، قم، مؤسسة البعثة، ١٤١٧ق.

- ١٧- الشيخ الطوسي، محمد بن حسن، (تهذيب الاحكام في شرح المقنعة)، تصحيح السيد حسن الموسوي الخرسان، النجف، دار الكتب الإسلامية، ١٣٧٩ق.
- ١٨- الشيخ الطوسي، محمد بن حسن، (الرجال)، تصحيح جواد قيومي، قم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ١٣٧٣ش.
- ١٩- الشيخ المفيد، محمد بن محمد، (المقنعة) قم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين، ١٤٣٠ق.
- ٢٠- العاملي، سيد محمد، (مدارك الأحكام في شرح شرائع الإسلام)، تصحيح مؤسسة آل البيت عليه السلام، قم، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، ١٤١٠ق.
- ٢١- العاملي، الشيخ حسن بن زين الدين، (منتقى الجمان في الأحاديث الصحاح والحسان)، تصحيح علي اكبر غفاري، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٣٦٢ش.
- ٢٢- العلامة الحلي، حسن بن يوسف، (مختلف الشيعة في أحكام الشريعة)، تصحيح مكتب انتشارات اسلامي، قم، ١٤١٣ق.
- ٢٣- العلامة الحلي، حسن بن يوسف، (منتهى المطلب في تحقيق المذهب)، تحقيق قسم الفقه في مجمع البحوث الإسلامي، مشهد، بنیاد پژوهش های اسلامی آستان قدس رضوي، ١٤٢٩ق.
- ٢٤- العلامة المجلسي، محمدباقر، (بحار الأنوار)، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٢ش.
- ٢٥- الكشي، محمد بن عمر، (اختيار معرفة الرجال)، تصحيح سيد حسن مصطفوي، مشهد، جامعة طهران، ١٣٤٨ش.
- ٢٦- المحدث النوري، حسين بن محمد تقی، (مستدرک الوسائل)، تحقيق مؤسسة آل البيت، قم، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، ١٤٠٨ق.
- ٢٧- المحقق الحلي، جعفر بن حسن، (الرسائل التسع)، تصحيح رضا استادي، قم، مكتبة المرعشي النجفي، ١٤١٣ق.
- ٢٨- المحقق الحلي، جعفر بن حسن، (المعتبر في شرح المختصر)، اشرف الشيخ مكارم الشيرازي، قم، مؤسسة سيد الشهداء عليه السلام، ١٤٠٧ق.
- ٢٩- مكدر موت، مارتين، اندیشه های کلامی شیخ مفید، ترجمة احمد آرام، طهران، انتشارات دانشگاه طهران، ١٣٨٤ش.
- ٣٠- الوحيد البهبهاني، محمد باقر بن محمد أكمل، (التعليقة على منهج المقال)، قم، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، ١٤٢٢ق.

31. Afrakhteh, Mohammad Hossein and Ali, Aun Hasan, "The Shiite Imams' companions' works in seventh century: al-Muhaqiq al-Hilli's sources in al-Mu'tabar", forthcoming.
32. Ali, Aun Hasan, Imamite Rationalism in the Buyid Era. M.A.Diss.McGill University, 2007
33. Newman, Andrew, Twelver Shiism: Unity and Diversity in the Life of Islam 632 to 1722, Edinburgh, Edinburgh University press, 2013.